قـــــراءة في مـــــذكـــــرات مختلفـــــة

٤-٤
قاسم عبد الامير عجام

التعريف بالمكان او الوقائع و/ او الاشخاص من خلال الهوامش

وهي هوامش مشبعة بما يتعلق بموضوعها من تاريخ وجغرافية والمنجز الحضاري المتصل بالمكان. او المنجز المعرفي المتصل بالشخصية دون اغفال للمصادر التي درست موضوع الهامش.. والحق انها متون موازية للمتن الرئيس اكثر منها هوامش.
وكمثال لذلك الجهد المعرفي الذي حملته تلك (الهوامش) نقف عند تعريفه بموقع تل حلف/ هامش ص٨٤:
"تل حلف: تل اثري يقع في شمال سورية على بعد خمسة كيلومترات جنوب غربي رأس العين قرب منبع الخابور. يرجع تاريخه الى الحقبة الممتدة من حوالي ٤٨٠٠سنة الى سنة ٤٢٠٠ قبل الميلاد. وتمثل اثار تل حلف عصرا من العصور الثقافية التاريخية يتميز بها، وقد سماه علماء الاثار عصر حلف وهو اول ادوار العصر الحجري المعدني لتميزه عن بقية الادوار التاريخية. وقد اصبحت منطقة تل حلف في منتصف الالف الثانية (ق.م) ضمن دولة ميثاني الحورية ثم اخذ الاراميون موضع هذا التل في القرن العاشر قبل الميلاد لبناء عاصمة لاحدى ممالكهم المسماة (بيت بحياني) عليه، كانت تسمى (جوزانا)".
او كالهامش الذي يعرف بالمذهب النسطوري الذي صبأ اليه اليهود الذين تنصروا قبل اكثر من ١٥٠٠عام، اذ لم يكتف بموقعه من المسيحية، وانما اشار الى ابرز منطلقاته ومواقع انتشاره وتاريخه.. الخ../ هامش ص,٨٦
ان تلك الهوامش شهادات عن انغماس كاتبها في البحث ويقظته وتركز انتباهه الى جوانب هذا العالم الهائل الذي حقق فيه ذاته.. حتى اذا جاء للحديث عن حياته لم يجد ما يتحدث عنه، بعد ولادته وطفولته واسرته، سوى هذا البحر الواسع من قضايا التاريخ ورموزه وحقائقه وكيف تفتحت شخصيته في خضمها.
ل-٣ ونستطيع ان نجد امثلة لهذه النزعة المعرفية في التعريف والاحاطة بما يتحدث عنه حتى ضمن ذكرياته عن دراسته في الولايات المتحدة كتعريفه بالامكنة وصفا وتاريخا.
-تعريفه بالعادات والمسميات.
-تعريفه بالانظمة الدراسية او ببعض الاعراف الحياتية.
وفي كل ذلك يضع الذات ضمن محيطها الاوسع.

ج-تعامله مع المصادر:
على كثرة المصادر التي يشير اليها فيما انجزه من دراسات، الا انها لا ترد كوسيلة للتوثيق فحسب، وانما يتعامل مع الكثير منها بروح نقدية تمتد من محاورتها الى رفض بعض ما يرد فيها كلا او جزءاً، او ان يقيم بين عدد منها او عدد من الروايات والبيانات مقارنات اذا كانت قد تناولت الموضوع نفسه أو أشارت اليه او دارت حوله كلما كان ضروريا.
وتشير بعض مناقشاته وهو يعرض هذا المصدر او ذاك.. او يورد هذه الواقعة او تلك أو هذا الرأي او ذاك الى سعة قراءاته ويقظته في تلقي ما يقرأ.. كمناقشته أدعاء اليهود بان تاريخهم يرجع الى عهد ابراهيم الخليل (ع) (٤٠٠٠ سنة ق.م) او ان عددهم حين هاجروا معه من العراق كان ٤٠٠٠ نسمة/ص٨٢ وكمناقشته في دراسته المقارنة بين المسيحية والاسلام لمن رمى الاسلام بما ليس فيه ص-ص ٢١٧-,٢٤٢
وايا كانت ردود الباحث على من لا يتفق معهم فانها تبقى مناقشة معرفية رصينة تتسلح بالوقائع والاستقراء والاشارة الى المراجع البديلة، فتقدم بذلك سنة معرفية في تقاليد المناقشة العلمية وآدابها.

د-اعتماد الصور والمرتسمات في متن السيرة:
كثيرا ما نجد صورا في مذكرات الساسة او عدد من الشخصيات العامة وكثيرا ما تأتي كملحق للمتن، لكن احمد سوسة في سيرته هذه استثمر الصور والمرتسمات ايضا، ومعرفيا فوزعها ضمن المتن لتكون شاهدا يوثق الواقعة ويعمقها مما يشير الى انتباهه لصلة الصورة بالمتن. ولذا يحرص على فهرسة تلك الصور والمرتسمات بجدول فهرسة لكل منها.

هـ: الاستشهاد بالشعر والمأثور وتوظيف التاريخ:
اول استشهاد بالشعر في هذه السيرة نجده في كلمة صاحبها التي القاها في اول اجتماع للطلبة العراقيين في الجامعة الامريكية ببيروت عام ١٩٢٤ موظفا اياه للحث على الاعتبار بالماضي واستخلاص دروسه. وقد تكرر ذلك في كلمة اخرى يحث فيها على تحرير المرأة واشراكها في نشاط المجتمع (ص١٤٢)، وفي كلمة ثالثة عام ١٩٢٥، ثم وهو يتحدث عن بعض وقائع حياته.
وتلك ممارسة تشير لا الى نزوعه الادبي فحسب وانما الى وعي احمد سوسة بما للشعر من قوة تأثير واقرار بدوام ما فيه حكمة او عاطفة. ولذا يستحضره وهو يتذكر حبة المبكر.. ويستحضر الشعر وهو يتجرع لذعات الشوق الجارف الى ولده الضخم (تاريخ حضاره وادي الرافدين..) (ص٢١٣) ويستحضره وهو يودع ذكريات شبابية وقد كبر (ص٢١٤).
ولعل اثباته لقصيدة الشاعر جميل صدقي الزهاوي التي القاها في دار حزب النهضة العراقي ببغداد عام ١٩٢٥ في مذكراته عن يوم ١٩٢٥/٤/١٨ رثاء للامام مهدي الخالصي (ص١٥٧-١٥٩) تعبير اخر عن ثقته بقدرة الشعر لا على التأثير فقط وانما على التوثيق ايضا، يعزز ذلك استشهاده بالشعر وهو يدرس قضية "هجرة الساميين من بوادي الجزيرة العربية الى اقاليم الهلال الخصيب واعمارها واستمرار الهجرات عبر العصور". ويبرر ذلك الاستشهاد بقوله ان الشعراء هم خير من يعبر عن شعور الناس بالاحداث العامة"(١) .
ولعل ايراد ذلك الشعر في مقام دراسة قضية تاريخية مهمة يعمق ما يراه للشعر من قوة توثيق ولذلك يستشهد حتى بمقطع من الشعر الشعبي من لون (الأبوذية) الذي ردده الناي ابان الاحتلال الانكليزي للعراق في اشارة الى عمق معايشته للاحداث وتذوقه للشعر المعبر.
على ان الشعر لم يكن المأثور الوحيد الذي استثمره في هذه السيرة وفي دراساته الاخرى اذ تجد استشهادات بآي القرآن الكريم ونصوص من الكتب المقدسة في موارد مختلفة واقوال للامام علي (ع) وأقوال مأثورة لغيره مستنبطا منها ما يمنح موقفه من القضية التي يتناولها قوة او يتخذها وسيلة لزيادة قدرته على الاقناع.
وفي هذا الاطار نضع تصديره لسيرته هذه بكلمات لتوماس جيفرسون عن حماس الشيخوخة للتسجيل والتوثيق بينما ليس في العمر ما يكفي، ليعبر بما يحسه هو.
اما الوقائع التاريخية فهي دائمة الحضور لديه للاستشهاد بها كاستشهاده بما كتب او قيل عنها. تجد ذلك في سيرته هذه كما تجده في كتبه ودراساته التاريخية وسفره الضخم (تاريخ حضاره وادي الرافدين..) يعج بهذه الممارسة.
ان تلك الاستشهادات لا تنم عن حافظة واسعة يقظه فقط وانما هي بشكل او بآخر احالات توسع افق المتلقي وتغريه بالتوسع وارتياد آفاق معرفية جديدة.

و- الفهرسة التفصيلية للمحتويات
وهذه ممارسة معرفية اخرى نقلها احمد سوسة من تقليد اكاديمي تلتزم به الاطاريح والرسائل الجامعية، الى كتبه وابحاثه التي يفترض انها تتوجه للقارئ المختص والقارئ العام، وانه هنا ليسحب ذلك التفصيل في فهرسة المحتوى الى فهرسة الصور والمرتسمات ايضا، بل ويضيف اليها اشارات تربطها بالمتن، وان يأتي ذلك في هذه السيرة كما يأتي في كتب البحث فلا حساسية بما تؤديه كتب السيرة من دور معرفي وبالتالي بما تتطلبه من تقنيات البحث المعرفي.
والحق ان تفصيل الفهارس، لا سيما فهارس المحتويات ومحتويات كتب احمد سوسة شاهدنا هنا - يساعد القارئ على:
-تكوين فكرة عن موضوعة الفصل الواحد ويوسعها الى موضوعة الكتاب والبحث كاشفا عن علاقات الاجزاء بالكل.
-ويدرب المتلقي على المنهجية العلمية في الاقتراب من الموضوع ومعالجته..
-الكشف عن منهج الباحث واحاطته بالموضوع.
وحين نجد ذلك الكتاب للسيرة فليس الا لان كاتبها يرى في السيرة جهدا معرفيا ولذا يستوفيه بوسائل البحث وطرائقه وأدواته. وتلك ملامح مشتركة بين هذه السيرة وبين بحوث صاحبها في القضايا الاخرى الى جانب ملمح مهم بارز آخر هو كتابته خلاصات وافية تتصدر كتبه الكبيرة.

خاتمة..
من ذلك يحق لنا القول ان سيرة حياة احمد سوسة اذ ترسم صورة شخصية له.. فانما تضعه في لحظته التاريخية زمانا ومكانا.. واننا لنجد تصعيدا باهرا لهذا المنهج في التأليف ودراسة الشخصيات في عمل احمد سوسة الضخم (الشريف الادريسي في الجغرافية العربية)(٢) الذي لم يدرس فيه هذا الجغرافي العربي الكبير الا بعد عرض مذهل لتاريخ الجغرافية وعلم الخرائط منذ اقدم العصور الى العصر العباسي ثم الى زمن الادريسي نفسه مرورا بدولة الادارسة في المغرب، ليضع جهد الشريف الادريسي في تسلسله التاريخي وليحتل المكانة التي له، عارضا كتبه ومؤلفاته ونسخها المتوفرة وما كتب عن كل منها.
وان تلك الملامح المعرفية التي اشرنا اليها التي لم تنشر، قسمات مشتركة في اعماله الاخرى كجزء من منهجه في التأليف مما يسمح لنا اذ نقرأ سيرته هذه انها مذكرات مختلفة فعلا، فنحن نقرأ فيها متنا معرفيا وان حمل عنوان (سيرة حياتي في نصف قرن).
انها حياة احمد سوسة الذي امتزج فيه الانسان بالمؤرخ والمهندس الباحث برجل القانون الاداري في كل متكامل، حتى اذا كتب عن نفسه - ولو عن غرامة الاول- لم يستطع ان يفصل احتمالات مغامراته الغرامية عن مسؤولياته الوطنية!
فهل عجب ان نقول معه.. فعلا انها مذكرات مختلفة؟!
ابداً.. وانها سيرة معرفية كما رأينا.. واننا بانتظار جزئها الثاني.
قاسم عبد الامير عجام
ناحية المشروع في ٢٠٠٢/٣/٦

الهوامش
١-احمد سوسة- ,١٩٨٣ تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري.. ج٢ص,٢٧٢
٢-احمد سوسة- ١٩٧٤- الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية - ج١،ج٢/ط١ بغداد- نقابة المهندسين العراقيين.

قصة قصيرة

دماءُ خِنجر خَثِرة

زيد الشهيد

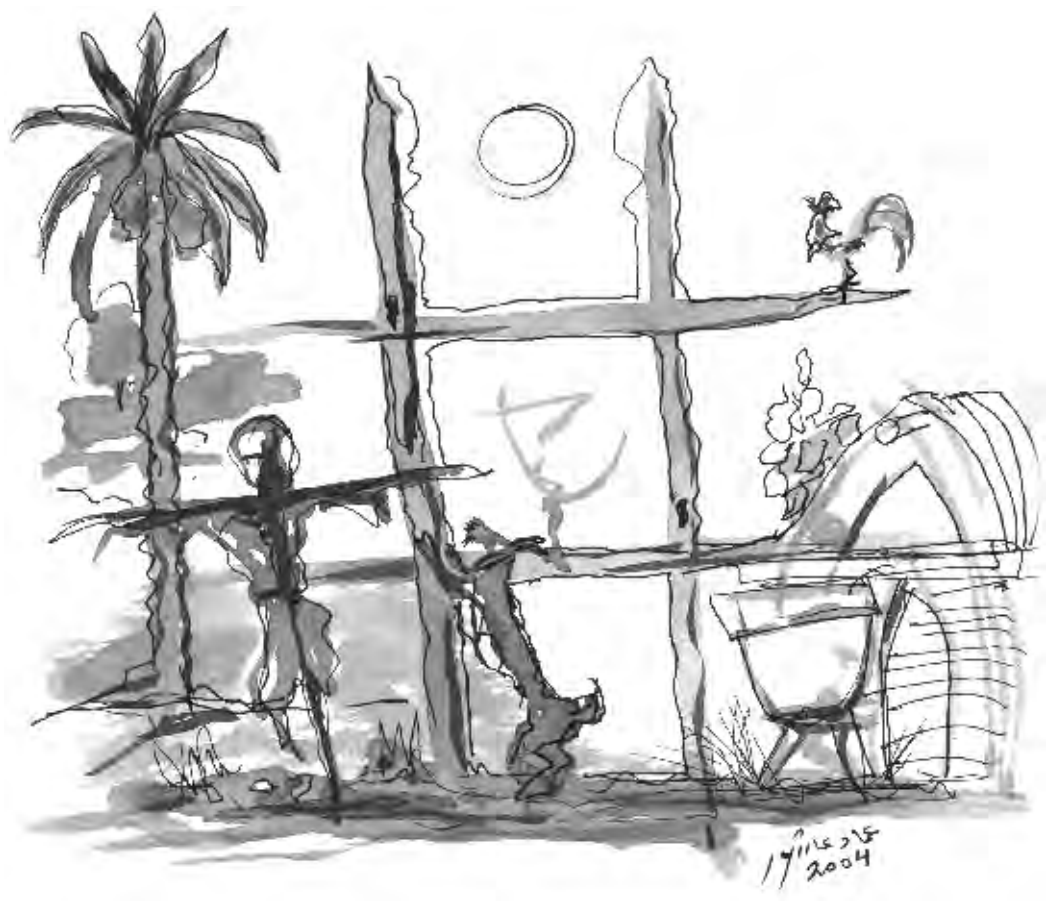

لاحَ لها صفيفُ النخيل بدكنة تشبه حزاماً مغبرّاً؛ وبدت معالم النهر البعيد كأفعى تلوذ مدفونة في غمرة رمال أدكن؛ والقرية لا يبان منها سوى بعض بصيص متناثر بين مصابيح كابية أرهقها الضباب الذي تعالى قبل ساعات.. ما كان عليها الانتظار حتى تنجلي عتمة الغلس (هكذا حدست !) بل حثّت الخطى كما لو كانت تسعى لتحقيق عهد ضمنت إنجازَهُ... رأيناها منَ علىَ عتبة سلم النزول إلى النهر (وكنا نجلس نطالع همود السلاحف على خثرة الرمل الندي بانتظار قدومها لنفجِّر في وجهها هاجسَ الخشيةَ عليها) تبدو كهالة نور تتحركَ باتجاهنا؛ وما كان أحدُنا ليرضى عن صمت وسكون وعدم تحرُك لولا لامبالاتها للخطر الذي سينبثقَ في أيّما لحظة، ومن أية ثغرة مكانية تخفي وراءها حشداَ من الدّهاءات المرسومة على الوجوه الذئبية التي تترصدها (كان لفتنة قوامها وخفّة خَطوها عذرٌ للآخَرين في حبّكَ الخيالات وبرمجة المكائد لنيلها والسعي إلى استحالتها واقعاً يتمثل كأحد ممتلكات ألانا المترجسة)؛ وكانت (هي) تمتلك ثقةً تجعلها تتحسَّب للمفاجيء فتعلن هيمنتها وسيطرتها واستحواذها على مراءاته ومخططاته الزائفة. وكنّا (نحن) نرقُبُ هذا التقدم الواثق مسحوقين بصدى أقدام عزمها على المضي. لا نريدها أن تواصلَ السير لأنهم كانوا يرابطون ما وراء سَور النهر لينقضوا لحظة اقترابها فينزلون بجمالها وعفّتها والكبرياء هتكاً (لقد صدّتهم مراراً وهي تُعلن أنها تساويهم بالكلاب التي تنبح بمرور طريقها، وأسمعتهم ثقيلَ الكلام وخَزي القول فلم يألوا جُهداً في التحمّل والنسيان، ثم التخطيط بما يُرهق قدرتَها فيدفع سدودَ تحدّيها إلى الانهيار ما يضطرّها للجوء إليهم في ساعةَ ندم وإعلان تخاذل.).
تحركت وقد انبرى بكفها المنجل يتوثب لموقف ستنهجه وترد على تبعاته بضربة باشطة تبتر عنقَ الكيد ثم بأخرى تطيح بهيبة(تلال المكائد)؛ وما كنّا نرى فيها غير المنتصرة دائماً . أمّا الآن فاللخوف عليها والخشية من أن يمسَّها سوءُ فِعالٍ هو ما جعلنا نفكر بالنهوض من حافة سلَّم النهر والتوجّه إليها لمنعها من التقدّم وكشف الفخ الذي يُنصَب لها بإمعان. (الزوج الذي هاجر لبلدان نائية وخذلها بكت عليه ولأجله دَموعاً من دم، كما هشَّمت عند تخوم رغبة انتظارها لعودته أحلى الأعوام واشذاها ولَم تعلن انه غدَرَها فمارس الجحودَ لوفائها.. وكانت أنْ بقيت وفيةً تنتظر ندمه، والإخوان الذين اتكأت على جدار كبريائهم في ملمّاتها تبعثروا في أصقاع ألدنا بحثاً عن عيش يقيهم ملوحة الأرض الزاحفة على هَناء أحلامهم ويبدو أنهم آثروا العيش لصفاء بالٍ هناك فمارسوا فعل النسيان ولم يَعودوا يتذكرونها).. في البيت تركت وراءها ولدين وبنتاً يغطون في نوم بعدما أغدقت عليهم قبلاتها الحميمية ونظراتها الملائكية، وأقسمت أن تُنشئهم على خصال قلّما يؤديها الرجال من الآباء. وكنا على وشك أن ننهض ونعترض طريقَها وهي تقترب أمتاراً عندما همست على مبعدة خطوة بصوت الذي يملك شيئاً ليقوله خلسةً بَحيث لا يسمعه احدٌ غيرنا، فَائهةً:" اعرف ما تبغون قوله فلا تنهضوا فتفشلوا مخططي "
واستمرت في خطوها بلا توقف....
(وكنا نريد أن نتقافز لنخبرها بخططهم لنفشلها.. كنا نريد أنْ نقول لها أنَّ احدنا جاءَ بالأمس ليسرَّ لنا باجتماع يعقدونه لاعتراض سبيلها والهجوم عليها في هذا الغَلَس لينزلوا بها فتكاً وتجريحاً وليتركوها عبرةً لحاملي الكبرياء المَصون).
الغَلَسُ ينثر رذاذَ عتمته وصفاء لحظاته ويوهمنا بانَّ الليل لَن ينتهي، وأن المكيدة ستتحقق وفق مرسومهم لا طبقاً لمرسومها، وأننا نتحنَّط في ديجور ليلة حسبناها إمّا ستكون تأريخاً لانتصارِ الغدر أو حدّاً فاصلاً لانهزاميته.
استمرّت تتقدّم والعيونُ الرابضة هناك خلف ستار الدهاء شرعت تبرقُ ببهجة تُماشي الموقفَ والمخططَ المرسَوم فيما عيوننا تدفَّقت تنضحُ خوفاً، وشفاهُنا تُفجِّر ارتعاشاً وأناملُنا تتشبثُ بما يَبرز من حافّات الدرب الذي نجلس عنده؛ والنهرُ يدرك عُظمَ الخطيئة التي ستُرتَكب لكنَّه عاجزٌ عن الكَلام؛ والعتمةُ لا تريد لوشاحها أن ينجلي.. استمرت وكانت علىَ بُعدِ خطوات ليس غير عندما انتفضتَ جملةُ قاَمات داكنة منتصبةً كما لو كانت أشباحاً تبرز من جوفِ غورٍ عتيم.
دنت منها.. !
أحاطت بها.. !
كانت ساعيةً لتضييق الدائرة والشروع بافتراسها وانتهاك مقدرتها عندما برقَ في عمق الظُلمة بريقٌ قوسي؛ راح يضربَ في كلِّ اتجاه (ورحنا نسمع دربكةً وهمهمات تعقبُها آهات، ثم سقوطاً لأجسامٍ تُصدر أصواتُ ارتطامها صدىً متوالياً، ما لبث أنْ توقَّفَ مُعيداً لليل صمته وسكونه).. لم نبصرها تعود.. حسبناها قُتلت بمختلف الطعنات ومُزِّقت من خناجرَ شتى. بكت دواخلُنا ولم نكن قادرين على النهوض والتحرّي والوقوف على خاتمة الصورة التي بدت لنا كالكابوسَ المرهق الثقيل. خشينا من غيلة قد تكون كميناً ثانياً يكمِّل متواليَّة الكمين الأول فننتهي إلى مقتلٍ بصورة كارثية ستبكيه القرية بكل بيوتها ودروبها فانسحبنا مرتعبين دون أن ندري أنَّ حضورَ الصباح كشفَ لعيون القرية وأناسها خمسةَ أجساد ممزَّقة يعفِّرُهَا التراب؛ وكشفَ للولدين والبنت الذين نهضوا من نومهم على أمٍّ ترقدُ بنومٍ هانىء عميق على غيرِ عادتها، ومنجلٍ لطَّخت بريقَه اللاصف خثرةُ دماءٍ سوداء غزيرة.

السماوة: ٢٠٠٥/١١/١

بيان من أجل إسلام التنوير

تأليف :مالك شبل
الناشر: هاشيت . باريس ٢٠٠٥

يقوم البروفيسور مالك شبل أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة السوربون، في هذا الكتاب شبل برد فعل قوي على الحركات الإسلامية المتطرفة التي تقدم صورة غير صحيحة وغير مقبولة عن التراث العربي والإسلامي. ففي رأيه أنها تشوهه ولا تفهمه على حقيقته ولذلك فقد آن الأوان لكي يتحرك العلماء والمثقفون ويضعوا الأمور في نصابها ويقوموا الاعوجاج الحاصل اليوم على أوسع المستويات. وللقيام بذلك ينخرط مالك شبل في دراسة طويلة عريضة عن الموضوع تتجاوز المئتي صفحة وهو يبتدئ كتابه بمقدمة عامة تحمل العنوان التالي: هل إسلام التنوير شيء ممكن يا ترى؟ بمعنى آخر: هل يمكن أن ينتصر الفهم التنويري للإسلام على الفهم الأصولي الظلامي السائد حالياً، وجواب المؤلف هو بالطبع بالإيجاب ففي تراث الإسلام منارات ساطعة ونقاط ضوء عديدة ليس اقلها الفلاسفة والعلماء وبغداد وقرطبة والأندلس الزاهرة.

مراسلات أونوريه دي بلزاك

تأليف :سي. لامب كيني
الناشر: كيسنغر بوبليشنغ نيويورك ٢٠٠٥

مترجم هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية هو الناقد الأميركي سي. لامب كيني، وقد ارفق النص المترجم بمقدمة مطولة وشروحات عديدة وهوامش، وهو هنا يقدم مراسلات الكاتب الفرنسي الشهير بلزاك من جزأين ضخمين يقاربان الثمانمئة وخمسين صفحة من القطع الكبير، ومعلوم ان رسائل بلزاك تشكل في بعض الأحيان جزءاً لا يتجزأ من أعماله الأدبية نظراً لروعتها وجمالها وهي تشكل على أي حال معيناً لا ينضب من المعلومات عن شخصيته وحياته. وبالتالي تلقي أضواء ساطعة على أعماله ورواياته ولا يمكن فهم هذه الأخيرة بدونها، وقد كتب بلزاك رسائل عديدة الى أمه وأخته وعشيقاته، وأصدقائه الى درجة ان جمعها في اللغة الفرنسية استغرق عدة مجلدات ضخمة! وبالتالي فالترجمة الانجليزية لا تحتوي إلا على مختارات واسعة منها وليس كلها.

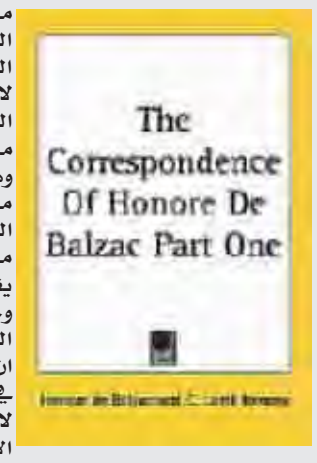

العصر الذهبي للعلوم العربية

تأليف :أحمد جبار
الناشر: لوبوميه . باريس ٢٠٠٥

الاستاذ أحمد جبار مؤلف هذا الكتاب أستاذ لتاريخ الرياضيات والعلوم في جامعة العلوم والتكنولوجيات في مدينة ليل بشمال فرنسا. سبق له وقدم العديد من المؤلفات من بينها (تاريخ العلوم العربية) و(الجبر العربي.. فترة تكوين فن). في (العصر الذهبي للعلوم العربية) يؤكد المؤلف أحمد جبار أن الحضارة العربية الإسلامية قد قدمت إبداعات في ميادين علمية عديدة من بينها علم الفلك والطب والرياضيات والجغرافيا. وأنها لم تقتصر على مجرد تمثيل المعارف اليونانية والهندية والبابلية والفارسية. أما هذا العصر الذهبي فإن المؤلف يمدده بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر الميلاديين.. وحيث يشكل الارث العلمي العربي كنوزاً ليست معروفة بشكل جيد ولم تنل ما تستحق من الدراسة والاعتراف بها.

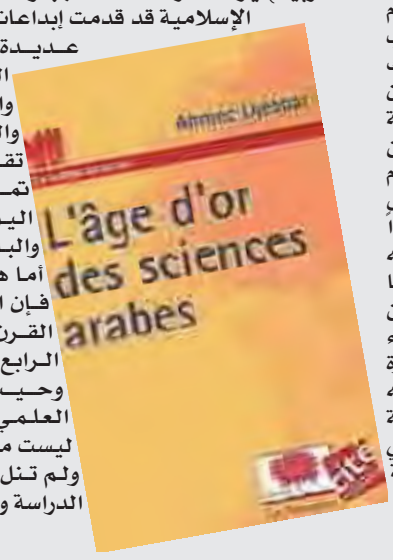

قد لا تغادر

تأليف :فاي ويلدون
الناشر: دار فورث إيستيت . لندن ٢٠٠٥

تعتمد رواية ويلدون على ما يسمى في يومنا هذا بالعلاقات، علاقة الرجل بالمرأة،العلاقة بين الأباء والأبناء والعلاقة بين الكبار والصغار، وهو ما يرى أحدنا أنها تستبدله بالصراع حيث توجه أعمالها الروائية، خاصة، الانتقاد لحياتنا أو سلوكنا اليومي بشقيه العابث اللاهي والمؤلم غالبية روايات ويلدون تسلط الضوء على ما يسمى بسياسة العلاقات. لذا فإن رواية (قد لا تغادر)، الرواية الخامسة والعشرين في سلسلة أعمالها الروائية، تحتوي هي الأخرى على وقفة تأملية للتجربة الإنسانية بمستوييها الاجتماعي العام والمنزلي شديد الخصوصية. في سيناريو شبيه بسيناريو قصة تقليدية من قصص الجدات، التي ربما كانت بطلتها امرأة عادية لا تقوم بوظيفة أكثر من وظيفتها الأنثوية البحتة، تهز المهد وتستغرق في التفكير في حياتها، تنجح ويلدون في تجسيد صورة المرأة العصرية الشابة التي يستولي عليها التوتر جراء التفكير في أمورها الحياتية المعقدة، التي تتطلب مواجهة خاصة.